الأقصر: الحياة والخلود

يرن في أذني قول د. سمير فرج رئيس مدينة الأقصر - هاتفيا - نحن أولى بتاريخنا، بتراثنا، وأحق بحضارتنا.

ونفس الجمل القاطعة التي تحمل معنى التحدى، أسمعها من عاشق الأقصر الفتى الشاعر أحمد فؤاد جويلى. وكأنهما اتفقا على هذه الحماية المستغرقة في حب هذه الأرض، حتى وإن كانت نزعتهما شديدة الشوفينية، هنا المهم الوعى بالتاريخ، بالأرض، والأكثر بالوطن.

حزمت أمرى للسفر إلى الأقصر، مدينة الحياة والموت، والأكثر شمسا وخلودا، وكنت قد زرتها خلال الشهور الخمسة الماضية ثلاث مرات، لكن هذه المرة تكون الزيارة مع سبق الإصرار والترصد، للتعامل التاريخى والمستقبلى مع المدنية، الناس، الأرض، الأثر.

وأذكر، وأتذكر، أول زيارة لى للأقصر في شتاء ١٩٦٥، عندما كنت طالبا بمدرسة المنصورة الثانوية، وكان ضمن منهج الدراسة - حينذاك - زيارة الأقصر وأسوان، وذلك لتنشيط الذاكرة التاريخية، وخلق حالة الانتماء لهذا الوطن.

وأتذكر دموع جدتى، وهى تثنينى عن هذه الرحلة، لأننى سأغيب عنها لأول مرة خمسة عشر يوما، «أكيد، أكيد ياولدى المشوار طويل، والبلاد بعيدة، وأنت مازلت صغيرا، تبكى بدموع حارة، وتقسم بغربتى» .!

فى حين شـدت من أزرى أمى، وقالت لجدتى : «يا خالتى، خليه يشوف الدنيا.. ويتعلم» !

تذكرت هذا المشـهد العاطفى وأنا على متن الطائرة، وشـتان ما بين الزمان ووسـيلة السـفر، منذ أربعة عقود كانت الرحلة تسـتغرق من المنصـورة إلى الأقصر نحو أربعة وعشـرين سـاعة، والآن بين القاهرة ومحطة وصولى.. ساعة!

يوقظنى من غفوتى وذكرياتى صوت احتكاك عجلات الطائرة بأرض مطار الأقصر، وتأهب كل ألوان البشر لمغادرة الطائرة.

(١)

يواجهنى شـروق الشمس، إنه صباح جديد يطل على مدينة الحياة والموت.. لقد بعثت فىَّ الشمس الحياة، وفى لحظات الإشراق، يستشعر الإنسان جمال الصباح المنتصر للحياة.

وشروق الشـمس وغروبها فى الأقصر يمثل نقطة التقاء بين سلسلة ثقافـات دينية ثلاث، فغروب الشـمس فى عالم الأمـوات يمثل ثقافة الديانة المصرية القديمة، وعودة الشـمس مـن رحلتها الغاربة، تعنى بعث الدفء والحياة، وهى تمثل فى العقيدة المسـيحية «عودة المخلص» .. أمـا فى الثقافة الإسـلامية، فالمـوت والحياة ربط بـين ما هو باق، وما هو زائل، إنها تعادل الزمن التاريخى مع الزمن الكونى.

اللحظة

لحظة الشروق

والشـعور تحديدا: مع وهج النور الشفاف، تجسد الجمال، والأفق الخالد بالأقصر امتد فوقه حركة الشـمس، ويقطعـه النهر المتدفق فى لحظة الشروق!

وتتقاطع مع اللحظة الشـاعرة، واللقطة السـاحرة المبشرة بالحياة، مع شـروق شمس يوم جديد فـى الأقصر حال وصولى.. صوت الشـاعر جويلى، وقوله:

من التراب أقلع الشجر
وأقلعت حقول
أتى المزارعون
مضى ربيع لدحهم إلى الافول
وغاصت الجذور نحو باطن.. الثرى
وينجلى الجدار عن نقوش قارة جديدة من النخيل والسنابل
وطار – فى النقوش – سرب طير
وجاء صوته مموسقا.. مغردا
لك الجمال أيها الوريث
لك الجمال...

(٢)

وتبـدأ تباشـير الرحلة من اتصالـين هاتفيين لسـمير فرج وأحمد جويلى حول هذه الحملة المسـتعرة فى الإعلام الفرنسـى، وكأن قدرنا أن «نكون رد فعل» !

الحملة تهاجم مشروع تطوير الساحة الأمامية لمعابد الكرنك حيث حولتها العشوائيات إلى بؤر من الإهمال، وتهاجم - أيضا - ما يحدث فى البر الغربى، وتصف من سيتم نقلهم إلى مساكن جديدة بها مياه وكهرباء بأنه «تهجير».

حملة الفرنسيين فى الميديا الفرنسية، ظاهرها الرحمة، وباطنها التضليل.

فى الظاهر حماية الآثار المصرية باعتبارها تراثا إنسانيا عالميا.

والباطن.. مصالح البعثة الفرنسية فى الأقصر، حيث تحتل مساكنهم أهم وأجمل بقعة على النيل، فى مواجهة الدير البحرى، وتغلق الطريق على معابد الكرنك فى رؤيته للبر الغربى، والدير البحرى، وتقف حجر عثرة أمام الرؤية المقدسة لمساكن الأموات.

ونقطة البداية فى التطوير الدراسة التى أعدها البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة - والتى تستهدف التخطيط المستقبلى المتكامل لمدينة الأقصر حتى عام ٢٠٣٠ بأبعاده الثقافية والاقتصادية والسياحية، وبحث متطلبات المدينة واحتياجاتها المستقبلية على عدة مراحل.

ومن أهم بنود هذه الدراسة تفريغ المناطق الأثرية من العشوائيات المنتشرة فوقها وبجوارها، خاصة وأن الأقصر مقامة على مدن أثرية كاملة لأقدم حضارة عرفها الإنسان، وتستهدف الخطة - كما يقول د. سمير فرج - إعداد المدينة كمتحف مفتوح.

ظلت الدراسة حبيسة الأدراج سبعة أعوام لعدم وجود موارد مالية، خاصة أن تكاليف تنفيذها يصل إلى سبعة مليارات جنيه.

بدأ سمير فرج - بإرادة المقاتل وروح الفنان - فى إزاحة التراب عن هذه الخطة بعد أن عرضها على رئيس الوزراء د. أحمد نظيف، ومع تحمسه بدأ فى إزالة عشوائيات وفقا للقرارات الإدارية التى كانت متجمدة، لا سيما وأن القرار الجمهورى رقم ٢٥٣ لسنة ١٩٨٩ يعتبر «الأقصر مدينة ذات طابع خاص».

بدأت حركة التطوير تدور مع حماس سمير فرج، وكان فى قلبها «تطوير الساحة الأمامية لمعابد الكرنك» التى تستهدف إعادة الكرنك إلى ما كان عليه قبل خمسة آلاف عام.. وباعتبار أن الفرعون كان يقف فى بهو الكرنك ساعة الغروب ليطل مباشرة على معبد الدير البحرى فى البر الغربى عبر نهر النيل.

واقتضى الأمر شجاعة إزالة ما يقف أمام بهو الكرنك، وبالتالى، فقد تمت إزالة المبانى الإدارية فى المنطقة، منها: تفتيش الآثار، ومبنى الصوت والضوء، ومركز الشباب، ومدرسة إعدادية، واستراحة لموظفى هيئة الآثار، إضافة إلى ٤٨ منزلا ومحلا عشوائيا تقع جميعها فى مواجهة المعابد، وتعوق الرؤية.. وقد تمت إزالة ٤٢ بازارا ومنزلا.

ومطلوب أيضا.. إزالة مركز شرطة الأقصر، ومسجد وكنيسة وقصر الثقافة، ومساكن البعثة الفرنسية التى تسمى «القرية الفرنسية»

والتى تقع على النيل مباشرة وتحجب الرؤية عن معابد الكرنك، فضلا عن منزل الأثرى الفرنسى جورج لوجران المتوفى عام ١٩١٧.

وعند قيام المجلس الأعلى لمدينة الأقصر بطلب إزالة المساكن المصرية التى يقيم فيها الفرنسيون فضلا عن منزل لوجران.

قامت الدنيا ولم تقعد. !

رفض الفرنسيون بشكل قاطع الإزالة، لأن منازلهم مقامة على النيل مباشرة، ورفضوا جملة وتفصيلا مشروع التطوير، وصوروا الأمر فى الميديا الفرنسية على أنه استيلاء على الأملاك الفرنسية، بالرغم من أنها مصرية مائة بالمائة! وقالوا لسمير فرج الذى نقل لى الحكاية بمرارة «البيوت موجودة منذ سنين.. لماذا تريدون – الآن – إزالتها» . !

كما رفض الأثريون الفرنسيون «من باب الوصاية» إزالة المساكن العشوائية المقامة فوق مقابر الأشراف والتى تصل إلى ٦٠٠ مقبرة بمنطقة القرنة بالبر الغربى. !

وتتوالى الحملة المسعورة، ويتم استعداء اليونسكو على مصر، وآثار مصر، وعلى سيادة مصر. !!

وتصل رسالة إلى رئيس هيئة الآثار المصرية د. زاهى حواس من اليونسكو مفادها بأن ما يحدث فى الأقصر يضر بالآثار المصرية التى هى ضمن التراث العالمى الإنسانى.! .. ولأن زاهى حواس مصرى ينتمى فكرا وقلبا وعقلا إلى مصر.. فقد كان رده قاسيا «بنينا حضارتنا

منذ سبعة آلاف عام، ونعرف جيدا كيف نصونها، ونعتز بها، ونحافظ عليها» !

تتواصل الحملة وتشتعل حول بيت الأثرى الفرنسى جورج لوجران، وقد تم تشييده على ضفاف معبد الكرنك عام ١٩١٦.. وكان لوجران - الذى توفى عام ١٩١٧ بالأقصر - ونقل جثمانه إلى القاهرة ليدفن فيها - قد عمل مفتشا للآثار المصرية مع بداية القرن العشرين، وقد اعتبر الفرنسيون المحدثون هذا البيت «أثرا» .. ويذكر هنا الجهود الكبيرة التى بذلها لوجران فى عمليات استكشافية كان لها نتائجها الهامة فى البحث عن الآثار المصرية، وسجل اسمه فى تاريخ الإنسانية، وهذا أمر لا ينكره الأثريون المصريون.

فضلا عن أن البيوت التى يسكنها الفرنسيون والتى شيدت فى العام ١٩٦٧، أقيمت «خطأ» على الميناء النهرى الذى كان يربط معابد الكرنك ونهر النيل، ومعه القناة الرئيسية للميناء، حيث كانت تبحر الزوارق الثلاثة المقدسة للإله آمون وزوجته من الميناء إلى البر الغربى.

ويعلق رئيس قطاع الآثار المصرية صبرى عبد العزيز على «الضجة» بقوله: «بيت مسيو لاجران ليس أثرا يجب الاحتفاظ به، سنزيل المنزل لإحياء الميناء القديم الذى يقع تحته، والغرض فتح الرؤية أمام معابد الكرنك» .

بينما يرى مدير قطاع الآثار بالأقصر منصور بريك «أن الضجة افتعلت للإبقاء على المنازل التى يقيم فيها الأثريون الفرنسيون، الذين

يـرون فى هدمها ضعف منهـم.. هى حالة عناد لا أكثـر أو أقل، هذا بالرغم مـن أن دومنيك فالابيل مدير المركز الفرنسـى بالقاهرة قد وقع على وثيقة عام ١٩٦٧ بهدم منزل لوجران» !

(٣)

وفى إطار الحملة المغرضة ضد مصر فى الميديا الفرنسية والتى دفعت اليونسكو إلى اتهام مصر بتشويه الآثار، زعموا أن مواطنين من الأقصر بعثوا لهم برسـائل استغاثة لإنقاذ آثار الأقصر من محاولات تشويهها تحت لافتة «التطويـر» .. ومن هذه المزاعم أن نقل مواطنى البر الغربى فى منطقـة القرنة من بيوتهم إلى بيوت أخـرى، هى عملية «تهجير» جديدة. !

وعبرت النيل إلى البر الغربى وشاهدت البيوت القديمة.. والجديدة وقمت بزيارة لمنزل قديم يملكه الحاج محمد أبو طايع، ويبلغ من العمر ٩٣ سـنة.. لكنه قادر على الحركـة، صاحب ذهن مرتب وصاف، وهو يقود حركة المعارضة لنقل البيوت من فوق الجبانات إلى القرية الجديدة فـى نجع الطارف فـى حين أن حفيده الذى يلقـب «بأحمد العمدة» له رأى آخر.

الجد محمد أبو طايع حالـة فرعونية خالصة. أقرب إلى غصن البان القوى برغم السنين.

يحكى عن علاقته بكارتر مكتشـف مقبرة توت عنخ آمون، وحسن بك فتحى المعمارى المصرى العظيم، صاحب نظرية عمارة الفقراء.

يقـول الجد محمد : إن منزله المبنى من الطـوب اللبن، عمره الآن ١٢٠ سـنة، ورثه عن أبيـه، ويعيش فيه أولاده وأحفـاده، وهو على مسـاحة كبيرة، ومثبت فى خارطة الآثار، وأيـام الملك فاروق صدرت قرارات إزالة لكل بيوت البر الغربى، ما عدا هذا البيت، الذى يقع فى نجع «الحروبات» وهو واحد من نجوع القرنة.

ويؤكـد، أنه بوصفه «دلال النجـع» .. والدلال هنا «بمعنى الحكيم الراشـد» .. وليس السمسـار، هو الذى يحكم فى المنازعات بين الناس فى النجع.

لكـن يا جدى الحاج – هكذا ناديته – تحت بيتك سـرداب، وأكيد بالسـرداب آثار، لذلك، أنت وغـيرك لا ترغبون فى ترك بيوتكم وهى بلا مياه أو كهرباء. !

ينتفض الجد من جلسـته، قائلا فى هياج، السرداب ننام فيه شتاء بلا أغطية، وصيفا بلا مراوح!

وأخذنى من يدى، وراح يعدو كشاب فى العشرين من العمر، يعرف طريقـه فى الظلام، واسـتخدمنا – نحن – البطاريـات، ونور أجهزة الموبايل لنعرف طريقنا الذى يعرفه هو جيدا.

توقـف وهو يقول: «فيه إيه فى السـرداب، قـش، أرز، تموين، فين الآثار» ؟ ويضيف : «الشيخ أحمد الطيب وأخوه محمد أخذوا قطعة واسعة، بنوا فيها قصور، ومع ذلك لم يتركوا بيتهم.. ليه؟ »

نعود.. لنشرب الشاى. يحكى الجد عن أيام زمان. الذى كان العامل يتقاضى فيها أجرا من مستر كارتر، وينطقه «كات» .. مائة فضة! .. أما أيام حسن بك «يقصد المعمارى حسن فتحى» فكان رجلا كريما، يدفع للعامل - ومنهم أنا - ثلاثة قروش يومية.

يضيف: «الناس أيام زمان كانت تعبانة ماليا، لكن الدنيا كانت زينة» .. أما هذه الأيام «الدنيا هاصت ولا واحد طايق التانى» .. فضلا عن «التليفزيون خسر الناس، والبطالة زادت بين العيال والرجالة والنسوان» .!

وحملنى الجد محمد أبو طايع رسالة إلى «حاكم المدينة».. يقصد د. سمير فرج.. بأنه لن يترك بيته إلا إذا حصل على مساحة أرض كبيرة تساوى مساحة بيته الحالى.!

وينقل لى حفيده «أحمد العمدة» رأيا آخر، مخالف لرأى جده. ويقول: «نحن سوف ننتقل إلى البيت الجديد فى نجع الطارف لأنه مسكن صحى تتوفر فيه المياه النقية والكهرباء والصرف الصحى، ولابد من ترك هذه المنطقة الأثرية.. على الأقل سنتخلص من تهمة سرقة وتهريب الآثار» .!

وأمّا فى هذه القضية تحديدا، فقد شاهدت على الطبيعة المنازل الجديدة، وهى لا تبعد كثيرا عن نجوع القرنة، وهى تكون فى مجملها قرية جديدة، حيث تقع مساحة البيت الواحد فى ١٧٥ مترا، منها ٧٥ مترا مبانى، ومائة متر كحوش مسور.. فضلا عن أن القرية

الجديـدة – كما يقول د. سمير فرج – تضم مدرسـتين وقسـم شـرطة ومركز شـباب وسـوقًا تجاريًا، وقد روعى استخدام عوامل الطبيعة فى البناء، بحيث تشكل القرية جزءا من المنظور العام للمنطقة الجبلية.

(٤)

وقبل أن يطوى التطوير صفحة البيوت المقامة منذ مئات السنين على مقابر البر الغربى، تتدخل «يد التوثيق» لفنان تشـكيلى شـاب «عمار أبـو بكر الصديق» والذى يعمل معيـدا بكلية الفنون الجميلة بالأقصر، راح يسـجل بريشـته هذه البيوت الطينية، يسـتنطقها، يخاطبها، وتخاطبه، يحولها إلى لوحات من «لحم ودم» .. وشاع بين أطفال النجوع أنه منحـاز للبيوت الطينية، بعد أن كان الأطفال من أبناء الميسـورين يتباهون ببيوتهم المبنية من الطوب الأحمر والمسـلح، ولم يكتف عمار «٢٧ سـنة» بذلك، بل وعلى حـد قوله : «قمنا بإنشـاء جمعية بقرية المحروسـة لرعايـة التراث، تضم فـى عضويتها مـن يعملون بالأدب والإعلام والمسرح والعرائس.. وبالطبع الفن التشكيلى» .

يضيف: «وتنحصر مهمـة هذه الجمعية فى رعاية التراث القديم، ومحاولة حمايتـه ورصده من خلال الطراز المعمـارى القديم والعناصر البيئيـة التى تعكـس تأثر الفن بالمقيمين فى هـذه القرى، وقد تم عقد ورش عمل للأطفال لتربية جيل جديد يستطيع الحفاظ على هذا التراث البيئى الخالص الذى يعكس طبيعة ثقافية خاصة، والمهدد بالانقراض،

وأنتجت هذه الورش العديد من الأعمال الفنية شديدة التلقائية، والمعبرة بشكل صادق عن الزمان والبيئة، وأخذنا هذه التصميمات، وأعدنا تنفيذها عن طريق الحرفيين التلقائيين.

(٥)

تصل بعثة اليونسكو إلى الأقصر، متزامنة مع زيارتى، وتضم رون فان أورس «هولندى الجنسية» ويعمل رئيسا لقسم البرامج المتخصصة وعضوا فى لجنة الحفاظ على التراث العالمى، والدكتور كريستوفر يانج «إنجليزى» وهو أثرى متخصص فى إدارة المواقع الأثرية.

وقاما بجولة فى مدينة الأقصر، ومناطقها الأثرية برفقة د. سمير فرج، كما قاما بزيارة البر الغربى، وقد تابعت البعثة عن قرب، ولاحظت دقة فحصهما لكل صغيرة وكبيرة، وتصويرهما لكل شىء، وكتابة ملاحظاتهما، وكأنهما «قاضيان» . !

وكان علىّ مواجهة البعثة، بإحساس مصرى، قبل واجبى المهنى كصحفى، ولا أنكر أنها كانت مهمة صعبة فى الحصول على تقريرهما قبل أن يرفعاه إلى رئاستهما فى باريس.. لكنهما أكدا لى بداية:

«أن من حق السلطات المصرية إدارة مشروعاتها لتطوير المناطق الأثرية، وأن زيارتهما لم تكن بقصد التدخل، بل للمتابعة، والوصول إلى إجابات لتساؤلات وردت فى خطابات من مواطنين مصريين يعيشون فى الأقصر، زعمت تعرض الآثار المصرية للخطر» !

ونفى رون ما تردد من أن اليونسكو قد أرسلت خطابا شديد اللهجة إلى د. زاهى حواس، بل كانت رسالة تحمل أسئلة، وقد جلسنا معا.. فى جلسة ودية، وكانت نتائجها إيجابية.

فى حين قال د. كريستوفر: إن الحكومة المصرية تعهدت بقبول المسئولية فى الحفاظ على تراثها الإنسانى، فضلا عن حقها فى وضع خطط تطويرية لمناطقها الأثرية، بالتشاور مع مركز التراث العالمى، التى تحتل فيه الآثار المصرية موقعا متميزا.

وأكد أنه من حق الحكومة المصرية إزالة العشوائيات، بل ومنزل الأثرى الفرنسى جورج لوجران، لأنه أقيم منذ البداية فى المكان الخطأ، كذلك ما يسمى بالقرية الفرنسية.

وإن كان رون قد تمنى لو تم تفكيك منزل لوجران ونقله إلى مكان آخر.. تعبيرا عن الاعتراف بجهوده الاستكشافية التى تمت فى بداية القرن الماضى.

وعن نقل مواطنى البر الغربى، قال رون: إنه برغم وجود هذه المنازل على موقع أثرى هام.. إلا إنه يتفهم حنين المواطنين إلى منازلهم الذين عاشوا فيها عشرات السنين، ويتمنى على الحكومة المصرية أن تقيم مع المواطنين حوارا قبل نقلهم إلى موطنهم الجديد فى نجع الطارف.

ويعلق رئيس قطاع الآثار المصرية صبرى عبد العزيز على اعترافات بعثة اليونسكو بقوله: «إنه من الإجحاف إنكار جهد الفرنسيين فى

عمليات الاستكشاف، وإن التخطيط يشمل إقامة متحف كبير، سيتم فى جزء منه الاحتفاء بكل الذين ساهموا فى عمليات الاستكشاف ومنهم لوجران وشيفرلييه وأوجست ماريت» .

يضيف: «لقد جاءت البعثة بفكرة خاطئة عن التطوير، لكنها تعود بانطباع إيجابى بعد أن شاهدوا كل شىء، وكنا واضحين معهم، لا سيما وإن التطوير لايهدد التراث الإنسانى، بل هو لأجل الحفاظ عليه، بل وإن السلطات المصرية دعت خبراء اليونسكو للمساهمة فى تطوير المناطق الأثرية» .

(٦)

ولأننا فى مدينة الحياة والخلود، الشروق والغروب، وكل ذات فلسفة خاصة ورؤية، ساقتنى قدماى بعد يوم حافل فى شمس الأقصر الملتهبة إلى حافة النيل، حيث الشمس فى طريقها إلى الرحيل.

هى راحلة إلى الغرب حيث مدافن الملوك والملكات والأشراف، بل وإن مدينة العمال التى تبلغ عدد مقابرهم عشرين ألفا وهم الذين شيدوا هذا التراث الإنسانى المبهر.

وفى اللحظة.

لحظة انحسار الشمس فى رحلتها اليومية.

يشعر الإنسان برعشة غريبة.. هى رهبة ممزوجة بالسكينة مع جلال الليل.

وفى لحظة سقوط الشمس على الجبل فى البر الغربى، يبدو الجبل وكأن يد فنان قد حولته إلى جداريات.. لكن الحقيقة أن من رسم ونقش ونحت هى الشمس بدرجاتها المتباينة ذات اللون الأحمر فى ساعة الأصيل.

إنها لحظة اكتسى فيها النهر والجبل بآخر ضوء، فتعطى الرهبة والسكينة فى آن.. وتدفع الإنسان إلى التأمل العميق، وتصل به إلى إثارة السؤال المفتقد.. لقد عرف الأجداد ما لم نعرف.. لقد توصلوا إلى الحقيقة.!

ويصل إلى أذنى فى هذه اللحظة المقدسة وميض صوت الشاعر:

من الوميض، والرعود، والزلازل
يدق جرسٌ
يدق فى السماء
وراقد يغوص فى النقوش
يحرك العيون والأنامل
...
تدب فى العروق رحلة الدماء
يسير برهة
وينفض الغبار عن يديه
ويستحم فى بحيرة البقاء.. !

(٧)

أستفيق من لحظة تأمل ما بعد الحياة، لأعود مرة أخرى للحياة..

لأن فيهـا ما يسـتحق الحياة، أعود إلى نهار يسـطع على الأقصر التى تحولـت إلى «ورش عمـل» فـى كل الاتجاهـات، فى منطقـة الآثار، وفى أنحاء المدينـة التى تحولت ألوان مبانيها إلى لون «ثمرة الدوم» .. وتم اختيار هذا اللون حتى لا يطغى على ألوان الآثار والمعابد.

ومع د. سمير فرج أجد تسـاؤلا وقد طرح نفسـه دون ترتيب: هل الأمانى ممكنة؟!

يقرر فى إجابة سريعة وقاطعة.. نعم الأمانى ممكنة!

لقد فتحت على نفسك النار من كل الاتجاهات، من أصحاب المصلحة فى عـدم التطوير، من أصحـاب البازارات، وربما مـن رجال الدين، مسلمين ومسيحيين، من مهربى الآثار، ومن اليونسكو؟!

ما الحكاية

هل تظن أنك مازلت مقاتلا فى القوات المسلحة، أنت هنا على أرض عمرها آلاف السـنين بكل تفاصيلهـا وموروثاتها، يضاف إليها عيوب هذا الزمان.!

ما الحكاية يا دكتور؟

يقرر د. سمير فرج رئيس المجلـس الأعلى لمدينة الأقصر، ويكرر إن الأمانـى ممكنـة، والأحلام يبـدأ تنفيذها بالخطـوة الأولى، وكلها تصب فـى إعادة الوجـه التاريخى المشـرق والحضـارى الرائع لمدينة الخلود، الأقصر، والوصول إلى ما كانت عليه قبل خمسـة آلاف عام! .. وأن تتحول إلى «متحف مفتوح» يليق بشعب مصر وحضارته.

يستمر فى الحكاية.. الحكاية - يا سيدى - واضحة، خطة أعدها البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة لتطوير مدينة الأقصر، وقد ظلت حبيسة الأدراج سبع سنوات، نفضنا عنها التراب بعد زيارة رئيس الوزراء أحمد نظيف للأقصر وبرفقته ١٢ وزيرا فى أول يناير ٢٠٠٤.

والخطة تصل بنودها إلى ٢٨ بندا، كلها تبدأ بـ «سوف» كان علينا أن نضعها على أرض الواقع، ونبدأ، بروح المقاتل، بدافع الإنجاز، بالإرادة، بالدعم الحكومى، والذى لحقه - مؤخرا - الدعم الشعبى.

بدأنا

☐ معابد الكرنك تقع على مساحة ٢٥٠ فدانا، وهى أكبر آثار الدنيا، علينا أن نعيد الموقع لما كان عليه، التكلفة ٦١٠ ملايين جنيه وتبلغ تكاليف إعادة طريق الكباش نحو ٢٤٠ مليونا تم تدبيرها من وزارة التعاون الدولى.

☐ نستهدف رفع عدد السياح من ٣,٥ ملايين إلى ٤ ملايين فى العام.

☐ نتجه نحو الظهير الصحراوى، باستثمارات صناعية فى ٢٥ ألف فدان، فضلا عن الاستثمارات الزراعية فى ٤٠ ألف فدان، والبداية ١٠٠٠ فدان لمستثمر سعودى.

☐ مرسى نهرى سياحى فى منطقة الطود، سيكون أجمل من خليج نعمة بشرم الشيخ.

☐ أقمنا طريقا دائريا حول الكرنك بلغت تكاليفه ١٢ مليونا.

☐ نقوم بتطوير فكرة الأجداد الفراعنة فى سحب المياه الجوفية،

هـم حفروا خندقا، نعيـد حفره مرة أخرى باسـتخدام التكنولوجيا، ويتكلـف ٥٠ مليونا، ٤٠ مليونا من المعونة الأمريكية و ١٠ ملايين من وزارة الثقافة.

□ أقمنا مركز النوبة الحضارى، حيث يقيم ٢٥ ألف نوبى بالأقصر منـذ التهجـير الأول عـام ١٩٣٣، وندرب فيه الفتيـات على الحرف البيئية، مع تجهيز نموذج لقرية نوبية سياحية بالبر الغربى.

يضيف.. وكما ترى نعيد تخطيط ميدان محطة السـكك الحديدية، مـع إعـادة تطويرها وتجهيزها على أعلى مسـتوى لتتـلاءم مع وجه الأقصر، مع توسـيع الشـوارع وتشـجيرها، وتغطية أسقف الأسواق، بأسقف ذات شكل جمالى تتناسب والروح التاريخية والأثرية للمدينة.

وأؤكد لك – والتأكيد لسـمير فرج – أن الأمانى .. ممكنة.! بل كل الأمانى ممكنة.

(٨)

وإذا كان د. سمـير فـرج يرى «أن الأمانى ممكنـة» ..فالأقصر تعج بمبدعيها، وعاشقيها، ومجاذيبها، ودراويشها، الذين يكتبون القصة والشـعر، ويبدعون مسرحا راقيا، وفنا تشـكيليا يوثقون به اللحظة، لعلهم يلحقون بأجدادهم.

منهم درويش كبير، اسمه «حسين خليفة» كان أول من نبه إلى الاهتمام بالـتراث الشـعبى المتناثر فى حكايات الجدود والجـدات، وفنون القول التلقائى. وحسين، وهو قاض كبير، كان المحرك الأساسى لحركة الأدب

فـي الأقصر منذ سـبعينات القرن الماضـي، بدأ شـاعرا متوهجا، عرفته القاهرة، وكتب عنه فؤاد حداد، ودعاه صلاح جاهين لإقامة فى القاهرة، لكنه لفظها، أو قل لفظته، فعاد للأقصر، ينشر، ويكتب، ويعلم.

والمدهش.. أن إنتاجه على مدار ثلاثة عقود، والذى كان يعده للنشـر، قـد احترقت اسـطوانته فى الكمبيوتـر! وضاع الآخر بـين أدراج مكاتب الثقافـة الجماهيريـة، وبعضه ضاع فى بيوت الأصدقـاء! .. لكنه يؤكد لى «سأعيد كتابته مرة أخرى بذات الروح التى كتبته بها من قبل» .!

ودوريـش آخـر اسمه «أشـرف النوبى» مخرج مسـرحى، يرقص وهو يمشى، ويمشـى وهو يرقص، يحلم بأن تقوم الثقافة الجماهيرية بالأقصر بتدريب الممثلين والمواهب الجديدة، ويحلم بتقديم مسرحه فى الشـارع، وفى ساحة أبى الحجاج، وفى ساحة معبد الكرنك. يريد فنا يلتحم بالأقصر، ويخرج من تراثها، ومثقفيها، ومبدعيها، يقدم للناس بمختلف ثقافاتهم وجنسياتهم، يخاطبهم بالموسيقى وروح الشعر، لأنه يؤمن بأن المسرح لغة عالمية.

ويتمنـى النوبى دعما لفكرته التى تقـل تكاليفها عن تكاليف حفل عشـاء «!!» وتقل جدا جدا عن تكاليف احتفالات أعياد «الأوبت» التى أقيمـت فى الأقصر من عدة سـنوات، وأخرجها مخـرج قاهرى كبير، وتقاضى أجرا مدهشا، ومع ذلك.. لم يقدم تراث «الأوبت» .!

ودرويش آخر،

شاعر وباحث،

أحمد فؤاد جويلى يرى إمكانية تحقيق حلم أشرف النوبى، لأن الأقصر تضم مواهب كبيرة من المخرجين وكتاب القصة والشعر والمسرح، ولديهم اهتمام حقيقى بتراث مصر الفرعونى المتمثل فى الحضارة الشاهدة على الأقصر، المشروع يمكن أن يكون أقصريا وديكوره المعبد الأثرى يضيف ويحفظ الأقصر «ترابها وسحابها وناسها» كنزا كبيرا من المعتقدات الشعبية والأساطير، والتراث الشعبى بشقيه الشفاهى والمادى، وإذا كانت كل قرى مصر تختزن هذا الكنز، إلا أن الأقصر - بوجه خاص - لها ما ليس لغيرها من مدن وقرى مصر.

يتذكر جويلى ويوضح .. «وأنت عندما تستيقظ فى الصباح، وتتوجه إلى مدرستك، ويكون أول ما يواجهك بوابات الكرنك العظيم، أو معبد الأقصر، قل لى ما الذى يدور فى مخيلتك، ما الذى تختزنه الذاكرة، كيف تتفاعل صور العمالقة و التماثيل و المعابد، مع سجودك طفلا فى بيت من بيوت الله» ؟!

ويشرح.. لقد وضعت «خطة أطلس فلكلورى أقصرى «وبدأت فعليا فى اختيار مقر بالبر الغربى، وتأسيس «جماعة حفظ وتوثيق التراث الأقصرى» وقد عرضت الفكرة على د. سمير فرج، فرحب بها، ووعد بتدعيمها.

يضيف.. سنعمل على توثيق المادة التراثية التى سنجمعها، و سوف نجرى دراسات تحليلية لكل قسم من هذه المواد، لإصدارها فى مجموعة كتب تحفظ تراث الأجداد.

وتستمر سلسلة الدراويش فى حب الأقصر.

و الفنـان التشـكيلى «عمار أبو بكر الصديق» قدم من المنيا لدراسـة الفنون التشـكيلية بكلية فنون الأقصر، فسكنته الأقصر، فأقام بها بعد انتهاء دراسـته، وتعيينه معيدا بالكلية، أسـأله عن أوجه الشبه بين الطقـوس الفرعونية، وملامح الحياة فى مصر القديمة، وما يحدث الآن فى الحياة المعاصرة.

يقول.. ما يحدث فى موالد العارفين بالله، هو كثير الشبه مع ما كان يحدث قديما، مثلا: الشـكل المصمـم عليه مقام العـارف بالله بمدينة سـوهاج يمثل تطورا طبيعيا لشـكل أبو الهول، وما يقـدم من نفحات ونـذور لمقامات الشـيوخ الآن، تشـابه تلك التى كان يتـم تقديمها فى العصور الفرعونية، والشموع والمخبوزات البسيطة تشبه ما يتم تقديمه عند الأقباط وهو «القربان».

ويشير عمار إلى أن فكرة «تغيير توب العارف بالله» سنويا، وغسيل المقام بماء الورد، هو تقليد فرعونى، حيث غسيل قدس الأقداس سنويا بماء الورد.

ويرصد عمار حركة الفنان التلقائى، وهو يرسم جداريات الحج على البيوت الطينية، وهى تعكس الطبيعة المتأصلة فى الشخصية المصرية، وتحايله على كل ما هو محرم فى رسـم الشـخوص والرموز بتصميمات مشابهه لتصرف الفنان المصرى القديم.

ويـرى أن أعمال الفنان المصرى القديم، سـواء كانت عمارة أم رسمًا أم نحتًا، هى حالة من حالات التدين الشديد.

(٩)

وبعد أن فرضت الشمس سطوتها على الأرض، انزوت، رحلت عبر النيل إلى الجبل فى البر الغربى، وعادت فى صباح اليوم التالى مشرقة على الأقصر، التاريخ، البدايات، وأنشد مع الشاعر :

وصلت سالما
كما يقال فى الحكايات القديمة
تعلقت أصابعى بصخرة الشاطئ
سقطت -مرهقا على الرمال - برهة قصيرة
أفقت، قبل أن تغوص فى المياه نجمة الحكاية !
حقا... أفقت
واقرأ التاريخ
على صفحات الأقصر

فقد بلغت من القدم والعراقة و الأصالة، مبلغا كبيرا، وهى من مدن قليلة فى العالم ممن شهد مولد التاريخ، والحضارة الإنسانية، منذ آلاف السنين، فضلا عن كونها تمتلك ثلث آثار العالم، وكانت الأقصر، ولم تزل جزءا عزيزا من وادى النيل.

وكان الوادى قديما مليئا بالمستنقعات و الأحراش، ينمو بها نبات البردى واللوتس و أشجار النخيل و الدوم والجميز و السنط والنبق و الصفصاف و الغاب، وكانت تعيش بها أفراس النهر و التماسيح و الزراف والفيلة و الذئاب و الضباع، كما كانت تكثر فيها الحيات

و الأفاعـى و الثعابـين، علاوة على أنـواع كثيرة مـن الطيور المحلقة فوق الوادى .

كان هذا حال الوادى قبل اكتشاف الحضارة .

ويشـير الباحثـون إلى تعدد السـلالات و الأجناس البشـرية التى عاشـت فى جنوب الوادى وشماله، فقد ضمت أجناسا حامية وسامية، بل وبحر متوسطية، ويمكن القول بأنها انصهرت معا ولا أحد يستطيع أن يدعى أن جنسا ما قد عاش فى منطقة ما منعزلا بمفرده.

ويشـير الباحث الأقصرى عبد المعطى الكلاسـى بأن صعيد مصر - والأقصـر جـزء أصيل منه - قد سـاد فيـه «الجنس الحامـى» القادم من الجنـوب ويدل على ذلـك التماثل فى الإنتاج الحضـارى فى مصر و النوبة السفلى.

وغالبية سـكان الأقصر من فروع تنتمى إلى أصول سامية، تتفرع من أصل واحد، ترد نسبته إلى سام بن نوح عليه السلام، فيما تنتمى بعض القبائل إلى سـلالات مصرية قديمة، وبعضها يرجع إلى سلالات عربية وفدت إليها من شـبه الجزيرة العربية، خاصة أيام الفتح الإسـلامى، واسـتمر تدفقها إلى مصر طـوال القرون الماضية ومن أهـم القبائل التى وصلـت مصـر «جهينة» و «بيلـى» وقد اتجهـت الأولى إلى صعيد مصر وشمال السودان، ويطلق عليهم الآن «عرب جهينة»

ومن أشـهر القبائل التى سـكنت الأقصر، خاصة الكرنك و المنشاة والعواميـة، قبائـل «الفهدية» الـذى يرجع نسـبهم إلى فهد بن جبل

القرشـي الهاشمي، الذى يمتد نسبه إلى العباس بن عبد المطلب، كذلك ذرية الصحابى الجليل عبادة بن الصامت، والصحابى محمد بن أبى بكر الصديق، ويسكنون قرية «الجبيل».

كما سـكنت القصـر وقراها ونجوعها قبائل عديـدة وفدت من مكة واليمـن والعراق و تركيا والأندلـس، إضافة إلى الأقباط الذين عاشـوا بها .. كما يوجد ذريات و سلالات يرجع نسبها إلى الفراعنة و اليونان والرومان، و الذين امتزجت دماؤهم بغيرهم فى الأقصر.

ومـن أشـهر الشـخصيات التـى سـكنت الأقصـر العـارف بالله أبـو حجاج الأقصرى، القـادم من العراق، وفقا لما ذكـره الأدفوى فى كتابه «الطالع السعيد».

والناس فى الأقصر – خاصـة المقيمين فى القرى و النجوع – مازال غالبيتهم يتمسكون بالنظام القبلى، بل ويعيشون فى ظله.

وهو نظام، يحترم كبار السـن من ذوى النسـب، وأصحاب العقول الراجحـة، والأخلاق الحسـنة، والسـمعة الطيبة، ويؤخـذ برأيهم ومشـورتهم فى حل المشـكلات، والصلح بين المتخاصمين، ورد الحقوق لأصحابهـا، ولا يعقـد أو يـبرم أمـرا إلا بعد الرجوع إليهـم و الأخذ برأيهـم، ومشـورتهم، فهم أهل «الحل والعقد» فـى المجتمع المترابط ويتميـز الناس فى ظل هذا النظام بالولاء و الانتماء لعائلاتهم، ويلاحظ وقوفهم بجانب بعضهم وقت الشـدة و الأفراح والمناسـبات و الترشيح للمجالس النيابية .

(١٠)

وقد تعددت أسماء الأقصر من عصر إلى عصر . وقد وصف هيرودوت مدينة طيبة بأنها المدينة ذات «المائة باب» إذ كانت محصنة بأسوار عالية، وموزعة على أماكن متفرقة، ويدل على ذلك ما جاء في نصوص الملك «أمنوفيس الثاني» الذي يقص علينا «أنه عند عودته ظافرا من حملته في آسيا، علق ستة رجال مهزومين فوق أسوار طيبة» .

وقد أطلق العرب المسلمون على هذه المدينة بعد فتح مصر، اسم «الأقصر جمع قصر» .. في إشارة منهم إلى معابد تلك المدينة الشامخة ووصفها المؤرخ ياقوت الحموى بقوله «الأقصر اسم مدينة على شاطئ شرقي من النيل بالصعيد الأعلى، وهي أزلية قديمة ذات قصور» .. في الوقت الذى قال فيه ابن بطوطة «وهي صغيرة حسنة، وبها قبر الصالح العابد أبو الحجاج الأقصرى» ..

وورد في معجم البلدان «الأقصر كأنه جمع قصر، وهو اسم مدينة على الشاطئ الشرقي للنيل بالصعيد الأعلى» .. وجاء في الخطط التوفيقية «ومن أسمائها طيبة، وطيوة، واسمها على لسان العامة لقصر» .. وجاء عنها في قوانين ابن مماتي «الأقصرين وهما بالبر الشرقي من النيل يقصد الأقصر والكرنك- وبها عنب غاية في الكبر و الحسن، وبها مدرسة لطلب العلم، ويعمل في هاتين البلدتين من الفخار الأبيض النقي الرفيع الذى ليس يعمل بديار مصر .. مثله» .

ويذكر الباحث عبد المعطى الكلاسى أن مدينة الأقصر كانت قديما «أبت الثنائية» .. و ذلك فى إشارة إلى قسمى المدينة اللذين يمثلهما معبدا الأقصر والكرنك، وقد أطلق على معبد الأقصر اسم «أبت رسيت» بمعنى «أبت الجنوبية» .. كما أطلق على معبد الكرنك اسم «أبت إيوت» بمعنى «عروش أبت» . ومن الجائز، كما يقول الباحثون أن «أبت» كانت تنطق فى عصر الدولة الحديثة «آبى» وهى كلمة إذا سبقتها أداة التعريف للمؤنث «تا» تصبح «تابى» وقد حرفت الكلمة إلى «طيبة» .

وقد جاء فى النشيد التاسع من الإلياذة «هناك فى طيبة المصرية حيث تلمع أكوام سبائك الذهب، طيبة ذات المائة باب، حيث يمر فى مشية عسكرية أربعمائة من الرجال الأبطال بخيلهم، وعرباتهم من كل باب من أبوابها الضخمة» .

ويفسر الكلاسى كلمة طيبة بأنها مشتقة من الكلمة المصرية القديمة «تا – أبت» .. أى «الحرم» أو «المكان المقدس» .. فضلا عما ذكره ويجل بقوله «إن طيبة مركبة من مقطعين هما «تا» ومعناها «أل» تضاف إلى الاسم المؤنث و «ابى» ومعناها مدخل أو باب، ومن هنا فإن طيبة تعنى الباب، وكانت تطلق على القسم الغربى المعروف الآن ببيان الملوك أو طيبة الأموات»

وقد أطلق المصريون فى عهد الدولة القديمة على الأقصر اسم «المدينة الجنوبية» .. وهى عاصمتها والتى أسسها الملك مينا الذى

ظهر فى طيبة، ويأتى ذلك بعد نجاحه فى تحقيق الوحدة الشاملة بين مملكتى الشمال والجنوب، وقد اختار مينا هذا المكان تحديدا ليسهل له السيطرة الكاملة على شطرى البلاد .

وفى عصر الدولة الوسطى نسبت طيبة إلى معبودها «آمون» والتى صارت له القبلة، فسميت المدينة «توت آمون» بمعنى «مدينة آمون».. وفى الدولة الحديثة، صارت الأقصر عاصمة سياسية ودينية، وأطلق عليها اسم «المدينة المنتصرة» .. كما أطلقوا اسم «واست» بمعنى «الصولجان» رمز الحكم والسلطان، وفى العصر اليونانى و الرومانى، أطلق عليها اسم «ديوسبوليس مجالا» أى «المدينة الكبرى لزيوس».. حيث شبه اليونانيون الإله آمون بالإله اليونانى الشهير زيوس.

وقد أطلق المصريون القدماء على البر الشرقى للنيل «مدينة الأحياء» حيث المعابد الدينية التى تؤدى داخلها طقوس العبادة والتقرب إلى الآلهة كما يوجد بها قصور الملوك و الأمراء و النبلاء و الأشراف، وبيوت الكهنة والموظفون وعامة الشعب، و أطلقوا على البر الغربى «مدينة الأموات» حيث المعابد الجنائزية، وفيها يقوم الملك بخدمة الآلهة بعد موته، كما كان يطلق على مدينة الأموات اسم «برحا تحور» أى «بيت حاتحور» الإله المقدسة فى هذا الوادى الموحش، و الذى يوكل إليها مسئولية حماية هذه المدينة من عبث اللصوص حينذاك، لكن فى هذه الأيام .. من يحميها من عبث اللصوص المعاصرين.؟!

(١١)

قالت صغيرتي:

العبرة نأخذها من التاريخ، وننفذ بها إلى الحاضر، ربما نصل إلى تصور للمستقبل.

ويرد عليها فاروق جويده بشعره:

بين الحجارة عاشق
عرف اليقين على ضفاف النيل يوما فاهتدى
وأحبه حتى تلاشى فيه
لم يعرف لهذا الحب عمرا.. أو مدى

(١٢)

وقد تعددت الآلهة في طيبة، وتمثل في الثالوث المقدس «الإله آمون» الذي كان يظهر في صورة آدمي، أو في هيئة حيوان على صورة كبش.

«و الآلهة موت» زوجة آمون، متمثلة في صورة امرأة، أو أنثى العقاب، أو أنثى الأسد، و «الإله خنسو» إله القمر، وهو ابن لكل من آمون وموت، ويظهر في صورة إنسان برأس صقر، يحمل على رأسه الهلال، يعلوه قرص القمر كاملا، وقد حظيت بمكانة دينية سامية.

وقد اعتاد مؤرخو التاريخ الفرعوني على تقسيم تاريخ مصر إلى أقسام متتالية، يحمل كل قسم مجموعة أسرات، وصلت إلى ٣١ أسرة، بدأت بالملك مينا موحد القطرين. ومؤسس الأسرة الفرعونية الأولى عام ٣٢٠٠ ق. م وتنتهي بقدوم الإسكندر الأكبر، ودخوله مصر عام ٣٣٢ ق. م .

وقد آمن المصريون بعقيدة التوحيد، وأن للكون إلهاً واحداً، هو المتصرف فى كل الأحوال، كما آمنوا بعقيدة البعث والحساب و الثواب و العقاب، لذلك فقد اعتنى المصريون بموتاهم، بما فى ذلك التحنيط.. سر الأسرار حتى الآن، كما اعتنى المصريون ببناء المقابر الملكية وغير الملكية و اهتموا بتزيينها، وتنافسوا فيها تنافسا كبيرا، وقاموا بنقش أعمالهم، وأساليب حياتهم على جدرانها، لتكون أنيسا لهم فى الممات، إلى يوم البعث والحساب .

(١٣)

وقد أسفرت هذه العقيدة عن إنتاج هذه الحضارة الهائلة، التى استخدمت العلم فى بدايات تاريخ الإنسانية، لتقدم فنا تشكيليا ومعماريا، وصفه أبناء هذا الزمان، بأنهم لم يصلوا بعد إلى قامة أجدادهم فى إنتاجهم الفنى الكبير.

وعلى رغم آلاف السنين، هى عمر هذه المعالم الحضارية والأثرية، فقد ظلت شامخة، وهى بذلك شاهدة على عبقرية الإنسان المصرى القديم.

والأقصر فى برها الشرقى هى «مدينة الأحياء» .. ومن أبرز المعالم:

معبد الأقصر:

هو من المعابد الدينية، والتى تقام فيه الطقوس الدينية، وتُقَدَّمُ القرابين والابتهالات للآلهة، ويقع على مساحة أربعة أفدنة، على

مقربة من شاطئ النيل، ويبلغ طوله ٨٥٣ قدما، وعرضه ١٨١قدما. وهو يمثل شموخ مدينة طيبة عاصمة العالم القديم.

ويرجع بناء المعبد إلى فترتين، الأولى فى السنوات الأخيرة من الثامنة عشرة، والثانية فى النصف الأول من الأسرة التاسعة عشرة.

وقد أقيم على أنقاض معبد قديم يرجع بناؤه إلى عصر الدولة الوسطى، وقد أقيم معبد الأقصر ليكون مقرا لثالوث طيبة المقدس، والتقرب إلى الآلهة «أمون وموت وخنسو» .

وقد شارك فى تشييده تحتمس الثالث الذى أقام بالمعبد مقاصير زوارق ثالوث طيبة المقدس، فضلا عن رمسيس الثانى الذى أضاف للمعبد الفناء الخارجى المفتوح بأعمدته، والصرح العظيم فى النهاية الشمالية للمعبد، فضلا عن مسلتين شامختين.

ويروى المهندس «باك ان خنسو» الذى أشرف على البناء بعضا من ذكرياته «لقد أقمت هذه المسلات من الجرانيت، وكان بهاؤها يصل إلى السماء وزرعت الأشجار فى الحدائق، وصنعت أبوابا ضخمة ذات دلفتين من الالكتروم، يلتقى جمالها مع جمال السماء» .

ويحتوى المعبد على تماثيل لرمسيس الثانى وتوت عنخ أمون، كما يضم فناء به عدد كبير من الأعمدة على شكل زهرة اللوتس، ويذكر أن الاسكندر الأكبر أراد أن يرضى الإله أمون فأقام له مقصورة فى أقصى جنوب المعبد داخل الهيكل، ثم جاء المسيحيون فشيدوا كنيسة

لهم داخل قدس الأقداس، و فى العصر الفاطمى أقام المسلمون مسجدا للعارف بالله أبو الحجاج الأقصرى فى الفناء الأول.

وتمثلت داخل معبد الأقصر – بذلك – حضارات فرعونية ويونانية ورومانية ومسيحية وإسلامية.!

معابد الكرنك

والكرنك يعنى «القرية الحصينة» أو «الحصن» ويعد من أكبر دور العبادة فى التاريخ، وبنى لعبادة الإله أمون، إله مدينة طيبة.

ويقع على مساحة ٩٣ فدانا، يربطهم معبد الأقصر «طريق الكباش» الذى أقامه أمنوفيس الثالث ١٤٠٥ – ١٣٦٨ ق.م .

ومعابد الكرنك، عبارة عن مجموعة فسيحة من المبانى المقدسة، ويضم عددا من المعابد أبرزها معبد الإله خنسو، وأمون رع الكبير، ورمسيس الثالث، والآلهة موت، وبتاح وحتحور ومنتو.

وبدأ تشييد هذه المعابد فى أوائل الدولة القديمة، ثم الوسطى، وصولا إلى الدولة الحديثة، وحيث يقف الفرعون فى البهو، يرى عبر النيل معبد الدير البحرى.

(١٤)

وبعبور نهر النيل، إلى البر الغربى، وبالانتقال على وسط التلال والهضاب والصحارى، يشعر الإنسان وكأنه فى العالم الآخر، لقد اقشعر بدنى وأنا فى مدينة الأموات، فالقدسية فرضت نفسها،

وجلال الموت تملكنى، وعبق التاريخ أخذنى، إلى حيث يعيش الأجداد فى العالم الآخر.

وقد أطلق الفراعنة على البر الغربى اسم «مدينة الأموات» وقد اختاروا هذا المكان ليتم الدفن فيه، وهو يعد النموذج المقابل من الجهة الجنوبية للجبانة العظيمة فى مدينة منف القديمة فى الشمال، وهاتان المدينتان المقدستان «طيبة الغربية» جنوبا و «منف الغربية» شمالا تعتبران مكملتين لبعضهما، ليس فى الموقع فقط، ولكن فى التاريخ أيضا.

واختيار البر الغربى له فلسفة دينية، هى أن جهة الغرب، كانت مقدسة عند المصريين، لاعتقادهم فى أن مغيب الشمس ما هو إلا طريق إلى العالم الآخر، عالم إله الموتى «أوزوريس» ولا يمكن للمرء إلا أن يقف مندهشا لتلك المقابر الملكية المنحوتة داخل الصخر، ووراء الهضاب فى الوادى الموحش، وذلك لضمان راحتهم الأبدية، وحماية مقابرهم من أعمال السطو بعد مماتهم.

ومن المعابد اللافتة للانتباه - وإن كان كل شىء لافتا للانتباه والدهشة - المعابد الجنائزية، ومعبد القرنة، والدير البحرى، وتمثالا ممنون، والملكة حتشبسوت، وتحتمس الثالث، ورمسيس الثانى، ودير المدينة، والمعابد الجنائزية بمدينة هابو، ومقابر وادى الملوك والملكات، ومقبرة توت عنخ أمون، وباقى ملوك الأسر الفرعونية. فضلا عن مقابر الأشراف والتى تصل إلى ٤٠٠ مقبرة.

وفـى عصرنا الحديـث، وتحديدا فى عام ١٩٧٥.. تم إنشـاء معبد الأقصـر والذى يقـع بين معبدى الأقصر والكرنك، على شـاطئ النيل، وقد أقيم بغرض عرض القطع الأثرية النفيسة.

وشـيد المتحف على أحـدث الطـرز المعمارية، مسـتخدما أحدث الأسـاليب المتحفية فى العرض، ويضم - بـين ما يضم - جناحا خاصا لعرض آثار فرعونية «خبيئة».. هى غاية فى الجمال و الروعة.

ومتحف الأقصر، يعطيك الإحسـاس بالزهو تجاه حضارة عاشت آلاف السنين - وتؤكد قدرة الإنسان المصرى المعاصر على الحفاظ على تاريخه. !

(١٥)

تطل الشـمس على مدينة الأحياء، ويظل القلـم عاجزًا عن التعبير عـن عظمة الزمان والأثر، ويظل الإحسـاس معلقا بالأقصر، هذه أرض أجدادى، وهذا مجد على أحفادنا الحفاظ عليه.

ويبقى أن أشـدو مع عاشـق الأقصر الشاعر أحمد جويلى فى نهاية الرحلة :

تـفـلـتـت الـمجـرة الـكـواكـب
ومـن عـروقـهـا الـجـبـال
تكشف كـهوفـها عـن الرسـوم
فـكـرة ومـومـيـاء
ونازحين - فى الجدار - للبقاء
وعن شـروحهم لـمبعث الضمير

و القيامة
من التراب أقلع الشجر
وأقلعت حقول
أتى المزارعون
مضى ربيع كدحهم إلى الأفول
وغاصت الجذور نحو باطن
الثرى.

obeikandl.com